أين العشاق اليوم؟!

محمد عوض الله العمري

التاريخ الأدبي العربي يزخر بالعديد من قصص العشق، وشعر العشاق، وتلك القصص والمآسي التي لم تخل من الصناعة الأسطورية، دبج حياكتها الرواة باختلاف ميولهم.

منذ العصر الجاهلي وما وصلنا من التاريخ الأدبي نجد ما يثبت ذلك من خلال مطالع القصائد والتي كانت علامة خاصة من علامات الشعر القديم، حيث ذكر الأطلال واسم المحبوب، وإن كانت تلك المطالع عادة وأسلوب، قد لا توحي بأن هناك عشقًا حقيقيًا وإنما ضرورة اقتضتها عادة الشعراء في تلك العصور.

فحين تذكر شعر أمرئ القيس فلا بد من أن تذكر فاطمة أو عنيزة، وكذلك الحال مع طرفة بن العبد وخولة (التي كما قال هشام بن الكلبي في شرح معلقة طرفة: خولة امرأة كلبية)، والأعشى وهريرة وهلم جر مع بقية الشعراء، وحين تمر على قراءة سيرة عنترة بن شداد يختلف الوضع فقصة الحب هنا مختلفة، إذ تحتوي على دراما ذات مستوى عالٍ، ربما بسبب شخصية عنترة ونبذه اجتماعيًا في بداية الأمر، فعنترة وعبلة بنت مالك بينهما قصة حب وعشق لا يمكن تجاوزها سريعًا.

وكذلك في العصور اللاحقة للعصر الجاهلي وصدر الإسلام نجد أسماء العشاق قد اقترنت بأسماء المحبوبات، فقيس ليلي (مجنون ليلى) وقيس لبنى، وهما القيسيان العاشقان الشاعران، أما الأول فقيس بن الملوح من بني عامر من هوازن من بادية نجد عاش في الفترة (68-24 هـ) والآخر قيس بن ذريح الكناني من بادية المدينة المنورة في الفترة من (60-3 هـ) وهذا قيس بن ذريح أخ للحسين بن علي من الرضاعة، وأيضًا جميل بثينة جميل بن معمر وهو من قضاعة، وبثينة بنت حيان الهونية من بطون قضاعة أيضًا وكانا في وادي القرى (العلا) ، وكثيرّ عزة وهو كثيرّ بن عبد الرحمن الخزاعي وعزة بنت جميل الحاجبية من بني ضمرة من كنانة، وكانا بداية في (كليّة) بين مكة والمدينة وتحديدًا جنوب شرق مدينة رابغ في مقابل مدينة الملك عبد الله الاقتصادية وهي معروفة إلى اليوم بهذا الاسم، و العباس بن الأحنف من بني حنيفة من أهل نجد وانتقل إلى بغداد وعشيقته (فوز) ولم يصرح باسمها الحقيقي إلا كناية لكثرة فوزها في السباقات!

وأبو العتاهية وعتبة، وأبو نواس وجنان، وتوبة بن الحمير وليلى الأخيلية وإن كانت ليلى هي الشاعرة هنا أكثر من توبة، وابن رهيمة وزينب بنت عكرمة المخزومية واسم ابن رهيمة محمد وهو مولى لخالد بن أسيد، وابن زيدون وولادة بنت المستكفي، وغيرهم من أسماء العشاق الذين صرحوا بعشقهم وأسماء من يعشقون، وصارت قصصهم تروى لما فيها من جوانب إنسانية ومأساوية، رغم ما صبغ عليها من الأساطير والحبكات الدرامية.

والعجيب في الأمر أن مثل هذه القصص لم تعد موجودة في عصورنا المتأخرة! فهل انتهت قصص العشق، أم حال أمر دون التصريح والاكتفاء بالتلميح؟ أم العادات الاجتماعية اختلفت فتحولت للصلف والزهد في التصريح بالعشق.

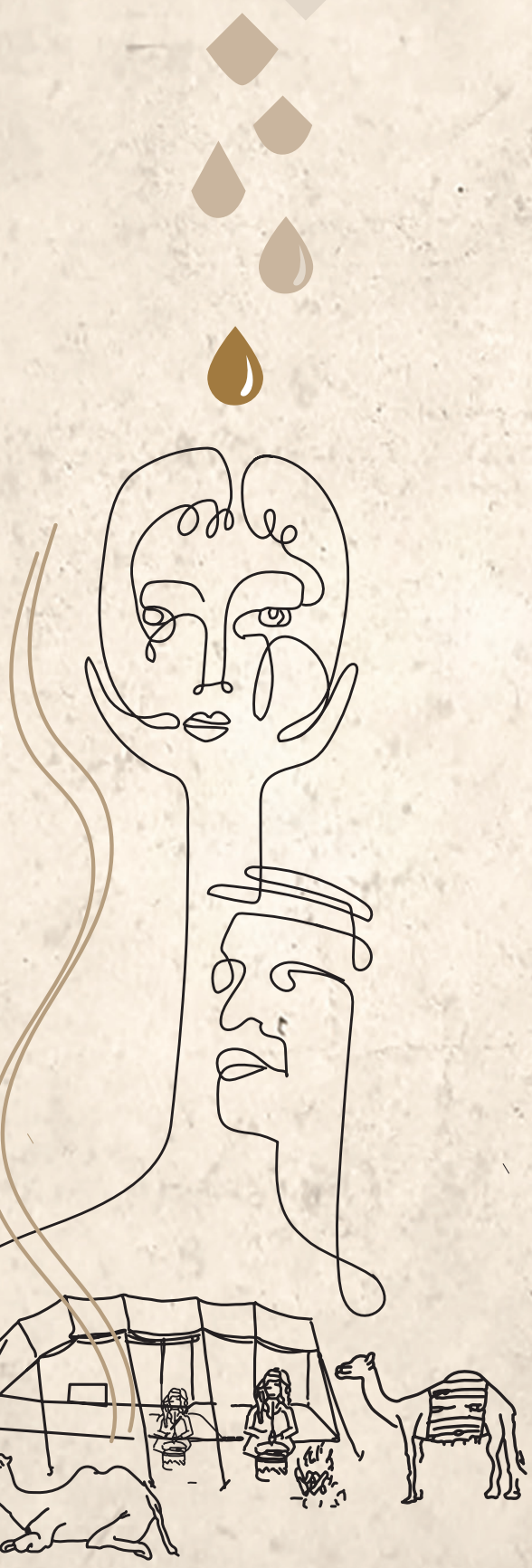

نعم برز عدد كبير من الشعراء الذين تميزوا بالغزل وأي غزل! لكن لم يرتبط أي اسم منهم بمحبوبته، إلا من خلال الغوص في سيرته ومعرفة مطارحاته الحياتية.

فنزار قباني وسعيد عقل وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه وإسماعيل صبري وبشارة الخوري من أروع من طرق شعر الغزل في العصر الحديث، لكن نزار ذكر بلقيس حين رثاها والجواهري لم يذكر اسم زوجته (مناهل)صريحًا بل كناية بـ(أم فرات) حين رثاها أيضًا!

ما الذي طرأ وتغير في النظرة الشمولية للعشق من الناحية الاجتماعية؟

سؤال يدور في خلدي وتتراوح أمامي العديد الإجابات، ولكن لكل منها موارد ومصادر ومتغيرات تجعل السؤال قائمًا.

فأين العشاق؟!

(بَليغٌ إِذا يَشكو إِلى غَيرَها الهَوى وَإِن هُوَ لاقاها فَغَيرُ بَليغِ) *

قيس بن ذريح